

## صناعة الخيزران بمدينة القليعة الجزائرية عندما يمتزج بريق الذهب بروعة الذوق وفن الإبداع

الأستاذ إسماعيل قاسمي - الجزائر

مدينة القليعة، واحدة من المدن الرائدة في مجال الحرف التقليدية والصناعات الحرفية الموروثة أبا عن جد في الجزائر، تتميز بتنوع نشاطاتها الحرفية الفنية التي توارثتها عن أصول الفنون الحرفية الأندلسية، كصناعة الأثاث المنزلي بالخيزران، صناعة جذبت الزبائن من كل الولايات، وحتى السياح والمغتربين. وساهمت كثيرا في الحفاظ على الطابع الثقافي والتراثي للمدينة.

تقع القليعة غرب الجزائر العاصمة، وتبعد عنها بـ 40 كلم، وتعد من المدن الموريسكية، أسست سنة 1550م من طرف الأندلسيين القسنطينيين والغرناطيين والبلنسيين، وأسسها حسن باتنا بن خير الدين بربروس، وهي من مدن ولاية

**أنامل توارثت الحرفة وتعتبرها فنا  
وتراثا وهوية**

عائلة "موالد"، هي العائلة المعروفة كثيرا هنا، وهي عائلة لا تزال متمسكة بهذه الصنعة التي ورثتها أبا عن جد، كان دخولنا إلى أحد المحلات الصغيرة في البداية، حيث وجدنا شيخا كبيرا في السن يحترف الصناعة بالقصب، وجهنا إلى عائلة "موالد" قائلا إن ذكر هذه الحرفة بالقليعة يرتبط بهم مباشرة،

تيزازة، احترف أهلها منذ القديم الفلاحة والصناعات الحرفية والتقليدية الرجالية والنسائية، واشتهرت بالفنون الأندلسية بكل أشكالها، وأصبحت معروفة بنشاطاتها الحرفية الفنية التي لا يزال بعضها صامدا في وجه التاريخ والتغير الاجتماعي. هناك العديد من المحلات في "طريق الجزائر" بمدينة القليعة، بعضها للبيع فقط، والبعض الآخر يحوي ورشات عمل، وأخرى لبيع الأشياء التقليدية

وصدق الشيخ في قوله، إذ وجدنا في الحرفيين من العائلة تمسكا كبيرا منهم بهذه الحرفة، حيث صرح لنا أحدهم أنها متجذرة فيه، وأنه ابن هذه الصنعة، قائلا "توارثناها أبا عن جد ونحن أبناء هذه الحرفة"، وهو يعتبرها هوية ثقافية قبل كونها مهنة تجارية، بينما يخبرنا آخر أنها فن أكثر منه مهنة، فالحرفي الذي يمارس هذه المهنة هو فنان حقيقي، وإبداعه في تشكيل أشياء جميلة نابع من تعلقه بهذا العمل، ويضيف قائلا "أحد أبنائي فنان ويتعلم هذا الفن، فهو فن قبل كل شيء، وابني يبدع في صنع أشياء جميلة جدا". يعتمد الخيزران في صناعته على أجود أنواع الخشب، وعلى أنامل حرفيين توارثوا المهنة عن أجدادهم، فتميزت بصمتهم الفنية، وأكسبتهم كفاءة عالية في اللمسات الأخيرة على كل عمل يقومون بإنجازه، من خلال الإهتمام الدقيق بالتفاصيل على أطراف الخشب الذي يصنع منه هذا الأثاث. وتستخدم هذه الصناعة مادتي الخيزران والزليز، الأول يستعمل في صناعة الأثاث المنزلي وتجهيزات المنازل والصالونات والكراسي والأسرة والطاولات وغيرها، ويستورد من دول شرق آسيا. أما الزليز فيستعمل لصناعة الأثاث الصغيرة للترتيب أو الاستعمال كالسلال والتريات

والمرايا وغيرها، وهو يستورد من إسبانيا رغم وجوده في الجزائر، ولكنه ينمو على أطراف الوديان ولا يزرع أو يعتنى به، عكس ما كان عليه وقت الاستعمار، حيث كانت هناك عناية بالحرفة وبزراعة الزليز والإهتمام به. يستعمل الخيزران كخشب، وقضبانته تكون بأحجام متنوعة وسمكها مختلف أيضا، وتستخدم قشرة خشب الخيزران في الربط والتزيين. كما أن طوي الخيزران على أشكال متساوية ليس بالأمر الهين، فهو يحتاج في ذلك إلى أيدي ماهرة وذكاء يعتمد على صنع طابع خشبي أولا، كما أن صناعة الأثاث الخيزراني بشكل عام، تعتمد على المهارة الفنية والذكاء في التعامل مع الأنواع المختلفة، لإيجاد شيء جديد وفني أكثر. كما أن هناك عدة أشكال لتكوين مادة الزليز في أشياء فنية، منها أشكال بسيطة، وأخرى معقدة وأشكال هندسية كالضفيرة والحزام والتبناك والعقد و"الغرزة" تختلف أيضا بحسب طبيعة العمل المستهدف. أما عن أسعار الأثاث، يحددنا عمي موالد أنه من الطبيعي أن تكون الأسعار باهظة نوعا ما، وذلك نظرا للوقت والجهد المبذولين في الحرفة التي تكون بطريقة يدوية خالصة، وتصل الأشياء المصنوعة من





خصيصا إلى القليعة التي اشتهرت به. كما يمثل السياح والجزائريون المغتربون بأوروبا، أكبر شريحة من زبائن الحرفيين، كونهم يدركون القيمة الفعلية للتحف الفنية التقليدية المصنوعة يدويا، ولو ارتفع ثمنها.

**من يكتسب هذه الحرفة، يستطيع أن يعيش بها**

أثناء تجوالنا في شارع "طريق الجزائر" الذي يحتضن عددا كبيرا من ورشات النجارة وصناعة الأثاث بالخيزران، والتعامل مع هذه الحرفة يكون إما بكونها ثقافة أو تراثا، وبالتالي يعتبرونها هوية ينبغي الحفاظ عليها، وإما بكونها تجارة مربحة ربحا سريعا وحسب، وفي كلا الحالتين يقوم الكبار بتعليم هذه الحرفة للشباب حتى لا تموت هذه الصنعة، حيث دخلنا أحد المستودعات وهو ورشة كبيرة لصناعة الخيزران، استقبلنا شيخ فوق عمره الثمانين سنة لا يزال يمارس المهنة ويقوم بتعليم مجموعة من الشباب، يقول لنا: "من يكتسب هذه الحرفة، يستطيع أن يعيش بها في أي مكان، حتى أمريكا.. ولا يخاف" ويبيدي لنا استعداداه لتعليم أكبر عدد من الشباب الذين يبلغ عددهم حاليا أربع أفراد.

الزليز بين سلال ومقتنيات صغيرة ومتوسطة إلى 6500 د.ج، كما يصل الأثاث المنزلي إلى 45 ألف دينار للصالون، وإلى 200 ألف دينار لأثاث غرفة كاملة، ولكن هذه الأسعار لا ندهش، إذا ما نظرنا إلى مدى جودة المنتج الذي يحافظ على رونقه إلى أكثر من عشرين سنة على الأقل، إذا لم يتعرض إلى النيران والمياه كثيرا. ويفضل البعض من الناس من غير السياح والمغتربين، شراء هذا النوع من الأثاث التقليدي، لكونه يملك قيمة تاريخية تحافظ على تراث المنطقة وتضمن للأجيال القادمة استمرارية التمسك بالتقاليد والتراث، وأمام ندرة الأثاث التقليدي بمدينة القليعة، تبقى قوة المنتج المحلي القليعي راجعة إلى الإيقان الذي عرف به الحرفيون. يخبرنا أحد الحرفيين عن طبيعة الزبائن فيقول إنهم عادة من الأغنياء ومن المثقفين الذين يدركون قيمة هذه الأشياء رغم سعرها الباهظ، لأنهم يدركون قيمة الوقت والجهد الذي بذلته الأنامل للفتنن في إخراجها على الصورة التي هي عليها، ويحبون طبيعة تلك الأشياء التقليدية المحافظة على إحدى أهم الحرف التي استعملها الجزائريون، ويقول إن زبائن الأثاث القليعي يأتون من جميع المدن الجزائرية